مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٩) العدد (٤) ٢٠٢٥
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (9) No. (4) 2025

الحرف عند ابن جني
ماهيته وطريقة تكوّنه

د. صلاح الدّين سعيد حسين *

(تاريخ الإيداع ٢/١٩ /٢٠٢٥. قُبِل للنشر في ٦/٢٥ /٢٠٢٥)

□ ملخّص □

تناول اللغويون العرب القدماء أصوات اللّغة العربية، وأطلقوا عليها اسم الحروف، ورتبوها، وحدّدوا صفاتها ومخارجها، ورغم اختلافهم في ترتيب الأصوات وفي عددها، وأماكن نطقها، وعدد مخارجها، دلّت دراساتهم الوصفيّة على تفكيرهم التحليلي، ومقدرتهم التجريبيّة المتميزة؛ ولكن الدّراسة المقنِعة التي تثبت أنّ الحروف أصوات معبّرة لم تتوضّح إلاّ عند ابن جني، كونه عرّف بمصطلح الصوت اللغوي، وتناول طرق تكوّنه، فنال بذلك فضل الأسبقية في تفسيره الدّقيق لطريقة تكوّن الحرف من قطع الصّوت الأملس الساذج، ولعلّ ما أقرّه ابن جني والقدماء قبله لم يفهم على حقيقته عند بعض المحدثين الذين اعتقدوا أنّ الحرف عند القدماء هو الرمز الكتابي للصوت أو هو الصّورة المرئيّة للصوت اللغوي؛ وهذا ما لم نوافق عليه في بحثنا، كوننا سنعمل على إثبات أنّ الصوت اللغوي هو الحرف الذي يتكون من قطع الصوت المستمر أو التضييق عليه في نقطة ما من جهاز النطق.

كلمات مفتاحيّة: تغيّرات صوتية، تركيب لغوي، الحرف عند ابن جني.

* أستاذ مساعد في كلية الآداب والعلوم الإنسانية . جامعة طرطوس . طرطوس . سوريا.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٩) العدد (٤) ٢٠٢٥
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (9) No. (4) 2025

The Letter according to Ibn Jinni
Its concept and method of formation

***Dr. Salah Aldeen Saeed Housain**

(Received 19/2 /2025. 25 /6/2025)

□ ABSTRACT□

Before Ibn Jinni, Arab linguists dealt with the sounds of the Arabic language, called them the letters, arranged them, and identified their characteristics and articulation. Despite their different views on the arrangement of sounds, their number, the places of their pronunciation and the number of their articulations. Their descriptive studies indicated their analytical thinking and exceptional experimental ability. But the convincing study that proves that letters are expressive sounds was made clear only by Ibn Jinni, where he defined the term linguistic sound that the modernists mean (phoneme), and dealt with the ways of its formation. So he gained the advantage of precedence in his accurate scientific interpretation, which believes that the (A) is the origin of the letters, and that the letter is formed from cutting a smooth, naive sound.

Perhaps what Ibn Jinni and the ancients before him dealt with were not understood properly, especially for those who saw that the letter is the written symbol of the sound or the visual image of the linguistic sound; Which made the letter go out of being a phonetic material, and considered it a written work that can be seen by sight.

Key words: phonetic change, linguistic structure, Letter according to Ibn Jinni

*Assistant Professor at Tartous University, Faculty of Arts, Tartous, Syria

مقدّمة:

الثابت أننا ـ قبل ابن جني ـ لا نستطيع الوقوف على مصطلح الصوت بمعناه الاصطلاحي الخاص الذي يُقصد به الصوت اللغوي، وإنما يمكننا الوقوف على معناه اللغوي العام، ومن هنا فإننا سنتناول مصطلح الحرف لإثبات صوتيته عند القدماء قبل ابن جني، ثم عند ابن جني، ثم عند المحدثين؛ ولعل السبب الذي دفعنا لأن نجعل من ابن جني محور هذه الدراسة هو أنه استطاع توضيح مفهوم مصطلح الحرف بدقة، فالحرف عنده حدّ منقطع الصّوت، وهو بذلك حرفٌ للقطع الحاصل في الصوت المستمر الذي هو مادّة صوتيّة، وبذلك يكون الحرف مادة صوتيّة منطوقة، وليس تمثيلاً كتابياً للصوت اللّغوي كما اعتقد بعض المحدثين، الأمر الذي دفعنا لعرض رأينا ونظرتنا الخاصة في العلاقة الترابطية بين مفهومي الصوت والحرف، ومفهومي القطع في الصوت والمخرج الصوتي.

أهميّة البحث: تأتي أهميّة البحث من كونه يسلّط الضوء على الالتباس الحاصل بين مفهومي مصطلحين صوتيين هما: (الصوت والحرف)؛ إذ يفرق المحدثون بينهما فيجعلون (الصوت) مادّة صوتيّة منطوقة، و(الحرف) رمزاً كتابيّاً للصوت، وهذا ما لم نوافق عليه في مقالتنا؛ لأننا نرى أنّ المصطلحين متساويان عند القدماء، وأنّ الصوت اللّغوي هو (الحرف) المطابق لمصطلح (الفونيم) المعاصر.

أهداف البحث:

١. إثبات أنّ الحرف عند القدماء لا يختلف عن الصوت اللّغوي، وأنه مادّة صوتيّة منطوقة، وليس رمزاً كتابيّاً للصوت.

٢. عرض فهم المحدثين لمصطلح الحرف، والتدليل على بعض التناقض في هذا المفهوم عندهم.

٣. عرض مفهومي الصوت والحرف عند ابن جني وطريقة تكون الحرف في الجهاز النطقي.

٤. عرض نظرتنا الخاصة في العلاقة بين مصطلحي المخرج والمقطع في الصوت المستمرّ.

منهج البحث: اعتمدنا المنهج الوصفي في عرضنا مفهوم القدماء للحرف، وبينا أن الحرف لا يختلف عن الصوت اللغوي، وليس رمزاً كتابياً للصوت كما رأى بعض المحدثين.

أولاً: الحروف عند القدماء:

الحروف عند القدماء أصوات منطوقة، والدليل على ذلك ترتيبها بحسب المخارج من الجهاز النطقي، ووصفها بصفات صوتية كالجهر والهمس والتفخيم والترقيق والاستعلاء والحلقنة والتغوير، وحديثهم عن مخارجها وصفاتها يلغي فكرة أن تكون رموزاً كتابية للأصوات، وأنّ الصوت هو الذي ينطق، والحرف هو الذي يرى بالبصر أو هو الرمز الكتابي للصوت. وفيما يلي بعض الدلائل على أنّ الحروف أصوات منطوقة:

١. ترتيب القدماء للحروف يدل على أنّها أصوات منطوقة: رتّب القدماء الحروف ترتيباً يدل على أنّها أصوات منطوقة، لا أشكالاً تُرى بالبصر كما توهّم بعض الباحثين المحدثين( )، الذين سنعرض ما قالوه في هذا المجال لاحقاً.

( ) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م، ص٨٣. ودراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، مطابع الروضة النموذجية، حمص، ١٩٨٨م، ص ١٠٣، واللغة بين المعيارية

وتظهر صوتية الحروف عند الخليل (١٧٥هـ) في ترتيبه لها حسب مخارجها، وليس حسب الشكل أو الكتابة، وقد بدأ بأصوات الحلق، ثم ذكر باقي الحروف إلى أن انتهى بالحروف الشفوية: (ع ح هـ خ غ)، (ق ك)، (ج ش ض)، (ص س ز)، (ط د ت)، (ظ ذ ث)، (ر ل ن)، (ف ب م)، (و ا ي ء)[١]؛ والخليل بهذا الترتيب ابتعد عن الترتيب الشكلي الكتابي الذي تتشابه فيه صور الحروف في الترتيب الألفبائي: (ب . ت . ث) . (ج . ح . خ) . (د . ذ) . (ر . ز) . (س ش) . (ص . ض) . (ط . ظ) . (ع . غ).

وأمّا سيبويه (١٨٠هـ) فقد رتب الحروف حسب المخارج أيضاً، ولكنّه خالف الخليل في بعض هذا الترتيب: (ء . ا. هـ . ع . غ . خ) . (ق . ك) . (ج . ش . ي . ض) . (ل . ر . ن) . (ط . د . ت) . (ص . ز . س) . (ظ . ذ . ث) . (. ب . م . و)[٢].

ورتب ابن سينا (ت: ٤٢٧هـ) الحروف ترتيباً مخرجيّاً على الشكل الآتي[٣]:

(الهمزة، الهاء، العين، الحاء، الخاء، القاف، الغين، الكاف، الجيم، الشين، الضاد، والصاد، السين، الزاي، الياء الصامتة، الطاء، التاء، الدال، الثاء، الظاء، الدال، اللام، الراء، الفاء، الباء، الواو الصامتة، الميم، النون)، وقد أخّر ابن سينا الألف، ولم يجعلها بجوار الهمزة خلافاً لسيبويه وغيره من القدماء، كما أخّر ابن سينا النون إلى آخر الحروف.

ورتب ابن جني (ت: ٣٩٢هـ) الحروف في باب (ذكر الحروف على مراتبها في الاطراد) على الشكل الآتي: " الهمزة (ء)، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء، والكاف، والجيم، والشين، والياء، والضاد، واللام، والراء، والنون، والطاء، والدال، والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والظاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء، والميم، والواو"[٤] .

والواضح أن ابن جني خالف سيبويه في موضعين هما: تقديم القاف على الكاف، وتأخير الضاد عن الأحرف الشجرية (ج، ش، ي)، ومما سبق يتبين لنا أن القدماء وإن اختلفوا في ترتيب الحروف وفي مخارجها؛ فقد توحّدت نظرتهم حول مصطلح الحرف بوصفه صوتاً لغوياً لا بوصفه مادة مرئيّة مكتوبة.

٢. وصف القدماء للحروف يدل على أنها أصوات منطوقة: أطلق القدماء على الحروف صفات تدل على صوتيتها، ومنها وصفهم لها بأنها مجهورة أو مهموسة، وذلك لأنّ الجهر والهمس صفتان تختصان بالأصوات المنطوقة؛ وهذا يعني أنّ التطابق حاصل بين الصوت اللغوي والحرف؛ لأنّهما من ماهية واحدة، ونستدل على ذلك بقول سيبويه: " فالمجهورة حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه، حتى ينقضي الاعتماد عليه ... وأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه"[٥] ، فمن الواضح أنّ سيبويه يتعامل مع (الحرف) بوصفه مادة صوتية منطوقة، وهذا يدل على أنّ القدماء كانوا يقصدون بمصطلح (الحرف) الصوت اللّغوي.

والوصفية، تمام حسان، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ١٣٠، وفقه اللغة في الكتب العربية، الدكتور عبده الراجحي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م، ص٦٠.

[١] العين، الخليل، تحقيق مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م،١/٥.

[٢] الكتاب، سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، د.ت. ٤٠٦/٢.

[٣] أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، تح: محمد حسان الطيان، ويحي مير علم، تقديم ومراجعة: د. شاكر الفحام، أ. أحمد راتب النفاخ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، د.ت. ص٨٤.

[٤] سر صناعة الإعراب، ابن جني، دراسة وتحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩٣م، ٤٥/١.

[٥] الكتاب، ٤٣٤/٤.

وقسم ابن جني الأصوات إلى مجهورة ومهموسة، وذكر الحروف التي تندرج ضمن صفة الهمس والحروف التي تندرج ضمن صفة الجهر، ويقول في ذلك: " اعلم أن للحروف في اختلاف أجناسها انقسامات نحن نذكرها: فمن ذلك انقسامها في الجهر والهمس، وهي على ضربين مجهور ومهموس، فالمهموسة عشرة أحرف، وهي: الهاء والحاء والخاء والكاف والشين والصاد والتاء والسين والثاء والفاء، ويجمعها في اللفظ قولك: (ستشحثك خصفه)، وباقي الحروف وهي تسعة عشر حرفاً مجهور"([1]).

يتضح أن الصفات التي ذكرت لا تدل على وصف لكتابة ترى بالبصر، بل تدلّ على أصوات منطوقة.

٣. مخارج الحروف عند القدماء دلالة على صوتيتها: مخارج الحروف عند الخليل ثمانية، وعند سيبويه ستة عشر مخرجاً؛ وعلى الرغم من هذا الاختلاف في عدد المخارج وترتيب الحروف؛ فقد فسّر كلّ منهما الأسباب التي دعته إلى هذا الترتيب؛ وجاءت التفسيرات صوتية تنم عن فهم عميق بالأصوات وبمخارجها وأماكن نطقها. وقال الخليل: " في العربية تسعة وعشرون حرفاً، منها خمسة وعشرون حرفاً صحاحاً لها أحياز ومدارج، وأربعة أحرف جوف وهي (الواو، والياء، والألف اللينة، والهمزة)، وسميت جوفاً، لأنها تخرج من الجوف، فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان، ولا من مدارج الحلق، ولا من مدارج اللهاة، إنما هي هاوية في الفم فلم يكن لها حيّز تنسب إليه إلا الجوف"([2]).

وقد ذكر الخليل ثمانية مخارج للحروف الصحاح، ومخرجاً واحداً لحرف الجوف التي ليس لها حيّز، وفيما يلي تفصيل ذلك([3]):

. الحلقيّة: (ع، ح، ه، خ، غ). حلقية لأنهاّ تبدأ من الحلق.

. اللهويّة: (ق، ك). لهوية لأنها تبدأ من اللهاة.

. الشجريّة: (ج، ش، ض). شجريّة لأنها تبدأ من شجر الفم.

. الأسليّة: (ص، س، ز). أسلية لأنها تبدأ من أسلة اللسان.

. نطعيّة: (ط، د، ت). نطعيّة لأنهاّ تبدأ من نطع الغار الأعلى.

. لثويّة: (ظ، ذ، ث). لثويّة لأنّها تبدأ من اللثة.

. ذلْقيّة: (ر، ل، ن). ذلقيّة لأنّها تبدأ من ذلق اللسان.

. شفويّة: (ف، ب، م). شفويّة لأنها تبدأ من الشفة.

. هوائيّة: (الألف . الواو . الياء . والهمزة). هوائيّة؛ لأنها هاوية لا يتعلّق بها شيء. أي ليس لها مخرج، لأنها تخرج من الجوف، ومن الواضح أن ما يخرج من الجوف أصوات هو أصوات منطوقة، وليس رموزاً كتابية ترى بالبصر، وهذا دليل على صوتية الحرف عند القدماء.

وأما المخارج عند سيبويه فهي ستة عشر مخرجاً، وسيبويه كالخليل يقصد بمخارج الحروف أماكن نطق الأصوات التي تخرج منها الحروف الموصوفة بأنها مجهورة أو مهموسة، وهذا دلالة على أن سيبويه يقصد بالحروف الأصوات اللغوية. ولحروف العربية عند سيبويه ستة عشر مخرجاً تجري متسلسلة من الحلق إلى الشفتين على النحو الآتي([4]):

---

[1] سر صناعة الإعراب، ٦٠/١.
[2] العين، ٦٥/١.
[3] نفسه، ٣٦ـ٥٨.
[4] الكتاب، ٤٠٥/٢.

. ثلاثة مخارج للحلق:

١: أقصى الحلق: (الهمزة . الهاء . الألف) (يقصد بالألف ألف المدّ).

٢: أوسط الحلق: (العين . الحاء).

٣: أدنى الحلق: (الغين . الخاء).

٤. من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى: مخرج القاف.

٥. من أسفل موضع القاف من اللسان قليلاً، ومما يليه من الحنك الأعلى: مخرج الكاف.

٦. من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى: مخرج الجيم والشين والياء.

٧. من بين أول حافّة اللسان وما يليها من الأضراس: مخرج الضاد.

٨. من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان، ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى، وما فويق الضّاحك والناب والرباعيّة والثنيّة: مخرج اللام.

٩. من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا: مخرج النون.

١٠. (مخرج النون) غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلاً؛ لانحرافه إلى اللام: مخرج الرّاء.

١١. مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا: مخرج الطاء والدال والتاء.

١٢. مما بين طرف اللسان وفويق الثنايا: مخرج الزاي والسين والصّاد.

١٣. مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا: مخرج الظاء والذال والثاء.

١٤. من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا: مخرج الفاء.

١٥. مما بين الشفتين: مخرج الباء والميم والواو.

١٦. من الخياشيم: مخرج النون الخفيفة.

وذكر ابن الجزري عدد مخارج الحروف، فقال: " أما مخارج الحروف: فقد اختلفوا في عددها، فالصحيح المختار عندنا وعند من تقدمنا من المحققين، كالخليل بن أحمد ومكي بن أبي طالب وأبي القاسم الهذلي وأبي الحسن شُريح وغيرهم سبعة عشر مخرجاً، وهذا الذي يظهر من حيث الاختيار، وهو الذي أثبته أبو علي بن سينا في مؤلف أفرده في مخارج الحروف وصفاتها، وقال كثير من النحاة والقراء هي ستة عشر فأسقطوا مخرج الحروف الجوفية التي هي حروف المد واللين، وجعلوا مخرج الألف من أقصى الحلق، والواو من مخرج المتحركة، وكذلك الياء، وذهب قطرب والجرمي والفراء وابن دريد وابن كيسان إلى أنها أربعة عشر حرفاً، فأسقطوا مخرج النون واللام والراء، وجعلوها من مخرج واحد"([1]).

وما تقدم من عرض لمخارج الحروف عند القدماء لم يدع مجالاً للشك في أنّهم قد قصدوا بالحرف الصوت اللغوي الذي لم يتوضح بالمصطلح الدقيق إلا عند ابن جني.

ثانياً: مفهوم مصطلحي الصوت والحرف عند اللغويين المحدثين:

اعتقد بعض المحدثين أنّ القدماء قصدوا بمصطلح الحرف الرمز الكتابي للصوت، ولا شك في أنّ هذا الاعتقاد ليس في مكانه، لأنّ القدماء لم ينظروا إلى الحرف على أنه مادة مكتوبة مرئية، بل نظروا إليه على أنّه صوت لغوي ينطق ويُسمع، وفيما يلي بعض اعتقادات الباحثين المحدثين حول الحرف:

[1] النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، تح محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت، ١٩٨/١-١٩٩.

١. الحرف رمز كتابي للصوت: اتفق معظم المحدثين على أنّ (الحرف) تمثيل كتابي للصوت اللّغوي، وكأنه ظل وإشعاع له: " وكل حرف له ظل وإشعاع إذا كان لكل حرف صدى وإيقاع "( ) . ويعرف الدكتور رمضان عبد التواب (الحرف) بقوله: " أما الحرف فهو ذلك الرمز الكتابي الذي يتخذ وسيلة منظورة للتعبير عن صوت معين "( ) ، فالفرق بين الصوت و(الحرف) هو الفرق بين العمل والنظر، والمقصود بالعمل (الصوت) والنظر(الحرف) ( ) ، وبهذا حُكم على مصطلح (الحرف) بإخراجه من كونه مادة صوتية مسموعة إلى مادة مرئية مكتوبة، وقد ورد في كتاب الأصوات اللّغوية للدكتور إبراهيم أنيس قوله: " وقعت لنا أخيراً محاضرة ألقاها الأستاذ الألماني شاده الذي كان يقوم بالتدريس في كلية الآداب، وفيها يعرض لآراء سيبويه ويناقشها، وكان مما أخذه المحاضر على سيبويه استعماله كلمة الحرف التي تعبرّ في الحقيقة عن الرمز المكتوب، فقد استعملها لما يسمع أيضاً، ولكن يعتذر عن هذا بأن كثيراً من علماء أوروبا ظلوا إلى عهد قريب يسلكون نفس المسلك، كذلك يرى الأستاذ المحاضر أن كلمة المخرج التي اتخذها سيبويه مصطلحاً للموضع الذي فيه يولد الصوت اللغوي مصطلح جانبه التوفيق"( ) .

نستنتج مما سبق أن المستشرق (شاده) يقرّ أيضاً بأنّ (الحرف) هو رمز كتابي للصوت اللّغوي، وهذا مالا نقر به، كوننا نعدّ (الحرف) هو الصوت اللغوي، وليس الرّمز الكتابي له، وهذا ما سنوضحه لاحقاً عند حديثنا عن طريقة تكوّن الحرف عند ابن جني.

٢. الحرف فونيم: يؤخذ على بعض المحدثين أنهم يحاولون جعل المصطلحات العربية تساوي المصطلحات الغربية الحديثة( ) ، ومن ذلك جعل (الحرف) مُساوياً (للفونيم) من دون إعطاء تفسير دقيق لمصطلح الحرف، إذ كيف يكون (الحرف) فونيماً، ومادة مكتوبة مرئية بالبصر؟ لقد ساوى الدكتور رمضان عبد التواب الحرف بالفونيم بقوله: " وهذه التفرقة بين الصوت والحرف على هذا النحو نتوصل بها إلى جعل الحرف مساوياً للاصطلاح الغربي فونيم "( )، وإننا مقتنعون بهذه المساواة، لأنّنا وضحنا سابقاً أنّ الحرف هو الصوت اللغوي، وليس رمزاً كتابياً له، لكن الدكتور عبد التواب يعود ويعرف الحرف بأنّه رمز كتابي أو وسيلة منظورة للتعبير عن صوت معين( ) ، فكيف يكون الحرف فونيما منطوقاً، ووسيلة منظورة للتعبير عن الصوت في الوقت نفسه؟

٣. الفرق بين الصوت والحرف: رأى بعض المحدثين أنّ القدماء لم يفرقوا تفريقاً دقيقاً بين مفهوم الصوت بعامة ومفهوم الصوت اللغوي، ولهذا يظهر التداخل بين المصطلحين( ) ، كما رأوا أنّ التداخل حاصل بين الصوت والحرف، مما جعل بعضهم يتوصل إلى جعل الصوت هو الذي نسمعه، والحرف هو الرمز الكتابي للصوت( ). ولقد فرق الدكتور تمام حسان بين الصوت والحرف بجعل الحروف وحدات ذهنية، والأصوات هي الأعمال النطقية، فالصوت عمل حركي، والحرف عمل ذهني أي إنّ الصوت محسوس والحرف معنوي مفهوم( ) ، ويتضح من آراء

( ) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، تح محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت، ١٩٨/١-١٩٩.
( ) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص٨٣، ودراسات في فقه اللغة الدكتور صبحي الصالح، ص١٣٠.
( ) اللغة بين المعيارية والوصفية، تمام حسان، ص١٣٠، وينظر في اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٣، ص٧٣، ودراسات في علم اللغة، كمال بشر، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٧١م، ٢|٤٨.
( ) الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، دار الطباعة الحديثة، الناشر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥، ١٩٧٩م. ص ١١١.
( ) علم اللغة في القرن العشرين، جورج مونان، ترجمة نجيب غزاوي، وزارة التعليم العالي، الجمهورية العربية السورية، ١٩٧٢، ص٢٥-٣٢.
( ) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، الدكتور رمضان عبد التواب، ص٨٤.
( ) السابق، ص٨٣.
( ) دراسات في اللغة، الدكتور مسعود بوبو، ص١٤٢، والعربية معناها ومبناها، الدكتور تمام حسّان، ص٥٧.
( ) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، الدكتور رمضان عبد التواب، ص٨٤.
( ) العربية معناها ومبناها، ص٧٣.

المحدثين السابقة أنّ هناك اضطراباً في فهمهم لمصطلحي الصوت والحرف (عند القدماء)، الأمر الذي أثر في فهمهم لمصطلحي المقطع والمخرج، وهذا ما قادنا للحديث عن هذا الاضطراب في الفقرة الآتية.

٤. الفرق بين المقطع والحرف: إنّ من الواجب التعمّق في مصطلحات القدماء وعدم الأخذ بظاهر كلامهم من دون تمحيص وتدقيق؛ فالذي يبدو لنا في ظاهر الأمر أنّه متناقض، ولا يتوافق مع الدراسات الحديثة؛ إذا ما تعمقنا في فهمه؛ فإننا نراه صحيحاً، ومن ذلك تعريف ابن جني للمقطع: " فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً "( )؛ فظاهر الأمر أنّ ابن جني يعدّ (المقطع) و(الحرف) شيئاً واحداً؛ مما جعل البعض يستنكر عليه ذلك، وسنورد الآن ما جاء في هامش كتابه (سر صناعة الإعراب): " وعلى هذا يكون المؤلف قد سمى المقطع هنا حرفاً، والمعروف أنّ المقطع هو مخرج الحرف، لا الحرف، فكلامه لا يستقيم إلاّ على ضرب من المجاز وهو تسمية المحل باسم الحال "( ) ، فقد فهم محقق كتاب (سر صّناعة الإعراب) أنّ ابن جني يعدّ المقطع حرفاً، وحاول تفسير كلامه على أنّه ضرب من المجاز، وقد ذهب الدكتور رمضان عبد التواب إلى أن ابن جني يعدّ الحرف مخرجاً للصوت فقال: " أما الحرف فإنّه يرادف في كلامه ما سبق أن سميناه بمخرج الصوت"( ) . ولعل الذي أحدث هذا التناقض هو أنّ المحدثين أخذوا بظاهر كلام ابن جني، كونه عدّ المقطع والحرف شيئاً واحداً، وإذا كان الحرف هو المقطع والمقطع هو المخرج، فهذا بالضرورة يعني أن الحرف هو المخرج.

إن ما ظهر من التباس في تعريف ابن جني للحرف ليس مرده إلى غموض أو تناقض في كلامه، بل السبب في أنّ المحدثين لم يتمكنوا من معرفة ماهية (الحرف)، فظنوا أنه مادة مرئية مكتوبة، في حين أن ابن جني يعدّه صوتاً لغوياً بكل ما يحمله الصوت اللغوي من معنى، ولتوضيح ذلك نعود إلى قول ابن جني: " فأما الحرف فالقول فيه وفيما كان من لفظه أن (ح ر ف) أينما وقعت في الكلام يراد بها حدّ الشيء وحدّته، من ذلك حرف الشيء، إنما هو حدّه وناحيته"( ) ، أي (الحرف) هنا هو نقطة قطْع الصوت، وبعبارة أخرى هو المقطع في الصوت الأملس المستمر، وليس المقطع في الجهاز النطقي الذي نسميه (مخرجاً)، وقد توضح لنا ذلك ضمن حديثنا عن مفهوم الصوت والحرف عند ابن جني.

يتبين لنا مما سبق أنّ المحدثين يتفقون في اعتبار (الحرف) التمثيل الكتابي للصوت اللّغوي، وكأن الحرف هو ظلّ وإشعاع للصوت: " وكلّ حرف له ظلّ وإشعاع إذا كان لكل حرف صدى وإيقاع "( ) ؛ كما أنهم يرون أن القدماء لم يفرقوا تفريقاً دقيقاً بين مفهوم الصوت بعامة ومفهوم الصوت اللغوي، ولهذا يظهر التداخل بين المصطلحين ( ) ، ويكفينا هنا أن نردّ على ذلك بمثال واحد فقط من كلام ابن جني في التمييز بين الصوت بالمعنى العام والصوت اللغوي: " فإن الصوت مصدر صات الشيء يصوّت صوتاً فهو صائت، وصوت تصويتاً فهو مصوّت، وهو عام غير مختصّ، يقال: سمعت صوت الرجل وصوت الحمار"( ) ، ويقول عن الصوت بالمعنى الخاص: " اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً حتى يعرض له في الحلق والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً "( ) ، فهل هناك أوضح من هذا التمييز بين

)١ سرّ صناعة الإعراب، ابن جني، ص٦.
)٢ هامش كتاب سرّ صناعة الإعراب، ص٦.
)٣ المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، د. رمضان عبد التواب، ص٥٨.
)٤ سر صناعة الإعراب، ١٤/١ ـ ١٥.
)٥ دراسات في فقه اللغة، الدكتور صبحي الصالح، ص١٤٢.
)٦ فقه اللغة، الدكتور مسعود بوبو، ص١٤٢.
)٧ سرّ صناعة الإعراب، ١٠/١.
)٨ السابق، ٦/١.

الصوت بالمعنى العام والصوت اللغوي، وفي هذا السياق نؤكد ما قاله الدكتور صبحي الصالح: " فلا شيء يمنعنا من التمسك باصطلاحات علمائنا المتقدمين في تسمية حروف الفصحى ومعرفة ألقابها والتمييز بين مخارجها وصفاتها، ولا شيء يدعونا إلى تفضيل التسميات الحديثة أو الأخذ بالتقسيمات العصرية التي يعمد إليها بعض العلماء اليوم، ولا سيما إذا اتضح أنّ تغيير المصطلحات القديمة يوقعنا في لبس شديد "[١] .

ولعل ما طرحناه في أن المحدثين أرادوا استعارة المصطلحات الغربية لإسقاطها على اللغة العربية أمر لم يحدث عند اللغويين العرب المحدثين فحسب، بل حدث عند اللغويين الغربيين، إذ نظر البعض إلى اللّغة الإنجليزية من خلال اللغة اللاتينية، ولهذا نرى دافيد كريستل يقول: " فاللغة الإنجليزية يجب أن توصف من خلال مصطلحاتها الخاصة بها، وليس بالنظر إليها من خلال اللغة اللاتينية، لأنّ الإنجليزية لغة معقدة بما فيه الكفاية، فلا داعي لإقحام التعقيدات التي في اللاتينية فيها "[٢] . ومن هنا نرى أنه من المفيد دراسة اللغات دراسة مقارنة، من دون أن نقحم المصطلحات الغربية على اللغة العربية، لأنّ ما نحاول إسقاطه على لغتنا قد يكون أصيلاً فيها ومن صميمها.

ثالثاً: مصطلحا الصوت والحرف عند ابن جني:

جاء في لسان العرب: " الصوت إطلاقاً هو الجرس"[٣] ، وعند ابن سينا (ت: ٤٢٨هـ)[٤]: " الصوت سببه القريب تموّج الهواء ودفعه بقوة وسرعة من أي سبب كان"[٥] ، ويعدّ ابن جني (ت:٣٩٢هـ)[٦] أوّل من وضّح مفهوم الصّوت اللغوي، وذلك من خلال تعريفه الشهير للغة: " أمّا حدّها، فإنها أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم، هذا حدّها"[٧] ، ويعدّ هذا التعريف من أكثر التّعريفات دقة وشمولاً عند القدماء، وهو يضارع أحدث التعريفات المعاصرة، لكونه يشتمل على أهم الخصائص التي تمتاز بها اللغة.

١. مصطلح الصوت عند ابن جني: الصوت عند ابن جني نوعان، صوت عام يشمل كل الأصوات التي تحدث في الكون، سواء في ذلك الأصوات الصادرة عن العاقل أو عن غير العاقل، لغوية أو غير لغوية، والنوع الثاني هو الصوت الذي يحمل قيمة تعبيرية.

١.١. الصوت العام: فصّل ابن جني القول فيه؛ حيث عرّفه بقوله: " فإن الصوت مصدر صات الشيء يصوّت صوتاً فهو صائت، وصوّت تصويتاً فهو مصوّت، وهو عام غير مختصّ، يقال سمعت صوت الرجل وصوت الحمار..."[٨] . فابن جني يرى أن هذا النوع من الأصوات يمكن أن ينطبق على أيّ صوت من الأصوات الموجودة في الطبيعة، ولهذا اصطلحنا في هذا البحث على تسميته بالصوت العام.

١.٢. الصوت اللغوي (الحرف): وهذا النوع من الأصوات مختص بالأصوات الإنسانية، ويتضح ذلك من قول ابن جني: "اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً"[٩] ، فالصوت هنا هو صوت بالمعنى

---

[١] دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، ص٢٧٧.

[٢] التعريف بعلم اللغة، دافيد كريستل، ترجمة حلمي خليل، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨١-١٩٨٢م، ص٤٩.

[٣] لسان العرب، ابن منظور (ت:٧١١ه)، دار صادر، بيروت، ١٩٥٦، ٣٥/١

[٤] أسباب حدوث الحروف، مطبعة المؤيد، القاهرة، ١٣٣٢ه، ص٦

[٥] الخصائص، ابن جني، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط٢، د.ت، ٣٣/١.

[٦] سر صناعة الإعراب، ١٠/١.

[٧] السابق، ص٦/١

الاصطلاحي يخصّ الصوت الإنساني دون سواه من الأصوات الأخرى، وهو هنا يتطابق مع الصوت اللغوي أو الفونيم، واللغة عند ابن جني " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"( ) ، والأصوات المعبرة هي أصواتٌ موظفة، والصوت الموظف ينشأ في نقطة قطع الصوت الأملس الساذج، ويتضح أن الصوت المستمر قد يُقطع أو يضيّق عليه في أي نقطة من جهاز النطق كالحلق أو الفم أو الشفتين، لكنه يبقى صوتاً لا يحمل قيمة تعبيرية إلا إذا قُطع وأصبح حرفاً.

٢. مصطلح الحرف:

١.٢. الحرف بالمعنى العام: وضح ابن جني مقصده منه بقوله: " فأمّا الحرف، فالقول فيه، وفيما كان من لفظه أن "ح ر ف " أينما وقعت في الكلام يُراد بها حدّ الشيء وحدّته، من ذلك حرف الشيء إنما هو حدّه وناحيته وطعام حريف يراد حدّته "( ) . فالحرف حدّ الشيء، والقطع يمّكن أن يحدث في أي جسم مادي.

٢.٢. بالمعنى الخاص: هو نقطة قطع الصوت المستمر أو هو المقطع في الصوت، ولكون المقطع في الشيء هو حرف لهذا الشيء، فإن المقطع في الصوت المستمر يتشكل عنه حرف في مكان القطع. وبهذا فالحرف يتكون من القطع في الصوت، ومعلوم أنّ القطع في شيء يكون من جنس الشيء المقطوع، وهذا يعني أنّ الحرف مادة صوتية، وليس مادة مكتوبة أو منظورة.

رابعاً: تشكل الحرف عند ابن جني:

١ مرحلة الصوت الأملس المتصل: والصوت في هذه المرحلة مستمرّ يخرج من الجهاز النطقي من دون أن يعترض طريقه أي عائق، وقد عبر عنه ابن جني بقوله: " اعلم أنّ الصوت عرض يخرج مع النّفَس مستطيلاً متصلاً "( ) ، فمن الواضح أنّ هذا الصوت[٣]هو المادة الخام للصوت اللغوي، لأنّ الصوت اللغوي ينشأ منه، وذلك بقطعه أو التضييق عليه في نقطة ما من جهاز النطق، وإذا لم يحدث تضيّق أو سد في الجهاز النطقي، فإن هذا الصوت يبقى مستمراً ومتصلاً، ولا يؤدي قيمة تعبيرية، وهو ما اصطلحنا على تسميته بالصوت غير الموظف، ونعني بذلك أن الصوت المستمر لا يعدّ صوتاً لغوياً، لأنّه لا يؤدي معنى، وهو ذبذبات صوتية مستمرة لا يعترض طريقها أي عائق، وقد أطلق عليه ابن جني اسم الصوت العام وعرفه بقوله: " فإن الصوت مصدر صات الشيء يصوّت صوتاً، فهو صائت، وصوّت تصويتاً فهو مصوّت، وهو عام غير مختص، يقال سمعت صوت الرجل وصوت الحمار"( ) ، ويمكن القول إنّ الصوت المستمر لا يحمل أي قيمة تعبيرية، لأن شرط قطع الصوت لا يتوفر فيه، ويمكننا الاستعانة بهذا الرسم الذي حاولنا من خلاله تمثيل مراحل خروج الصوت المستمر المتصل عند ابن جني:

)١ الخصائص، ٣٣/١.
)٢ سر صناعة الإعراب، ١٤/١ ـ ١٥.
)٣ سر صناعة الإعراب، ١٤/١ ـ ١٥.
)٤ السابق، ١٠/١.

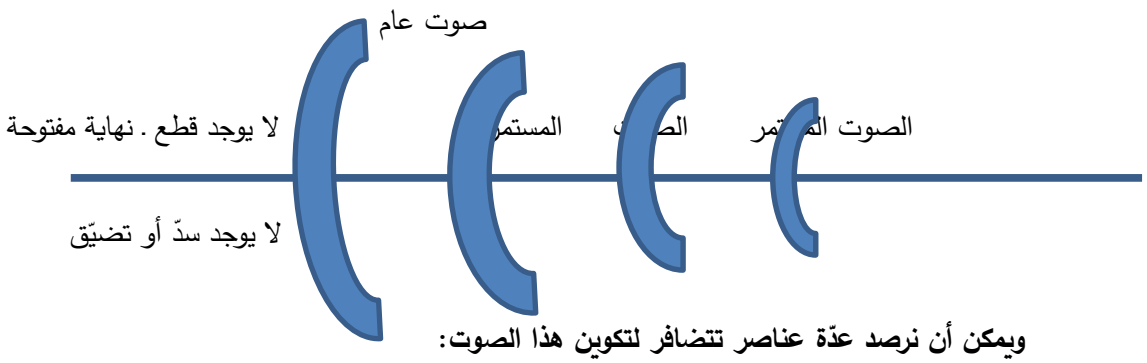

ويمكن أن نرصد عدّة عناصر تتضافر لتكوين هذا الصوت:

١. المنبع الصوتي أو مكان إنتاج الصوت، أو نقطة التصويت.

٢. الصوت المستمر، أي الذي لم يحدث خلال نطقه سدّ أو تضيّق في الجهاز النطقي.

٣. النهاية المفتوحة: وتعني عدم وجود أي سدّ أو تضيّق عند مرور هذا الصوت في جهاز النطق، وقد عبر عنها ابن جني بقوله: " فإن اتسع مخرج الصوت حتى لا يقتَطع الصوت عن امتداده واستطالته استمر الصوت ممتداً حتى ينفذ، فيقضي حسيرا"( ) ، والصوت المستمر في هذه المرحلة ليس له حرف أو حدّ أو طرف، أي لم يحدث فيه قطع أو تضييق.

٢. مرحلة قطع الصوت الأملس المتصل وتكوّن الحرف: وفي هذه المرحلة يُقطع الصوت المستمر في نقطة ما من جهاز النطق، ونقطة قطع الصوت الأملس هي (الحرف)، وهذا ما يؤكده قول ابن جني:

" اعلم أن الصوت يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً "( ) ، ويتضح أن ابن جني يقصد بالحرف ما نسميه اليوم (الصوت اللغوي)، وهو لا يقصد به الرمز الكتابي للصوت، فالحرف صوت، لأنّه يتكون من قطع الصوت المستمر أو التضييق عليه، وقد حاولنا توضيح ما سبق بالرسم الآتي:

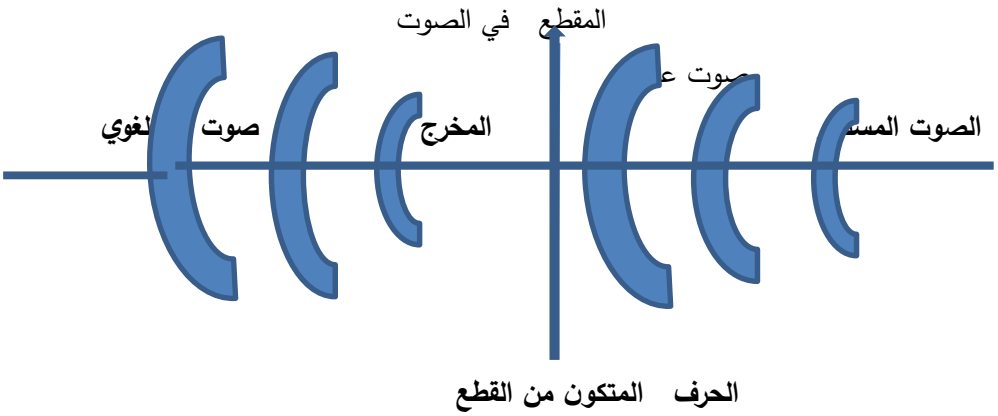

ويمكن أن نرصد عدّة عناصر تتضافر لتكوين هذا الصوت:

( ) السابق، ص٧.

( ) سر صناعة الإعراب، ١|٦.

١. الصوت المستمر، وهو الصوت ذاته الذي ذكرناه في المرحلة الأولى.

٢. القطع في الصوت المستمر، أو التضييق عليه في نقطة ما من جهاز النطق، وينظر إلى القطع من ناحيتين:

الأولى: صوتية، وهي القطع في الصوت المستمر وتكون الحرف.

الثانية: مكانية: وتسمى المخرج، أي مكان خروج الصوت.

٣. تكون الحرف وخروجه من الفم.

والواضح أن القطع يحدث في الصوت المستمر، ونقطة القطع هي مخرج الحرف، وفيها يتكون الحرف.

الخاتمة والنتائج:

يتضح مما سبق أن ابن جني كان له فضل الأسبقية في التوصل إلى مفهوم الصوت اللّغوي، وقد تناوله من الناحية الفيزيائية، وبيّن طريقة تكوّنه من الصوت المستمر الذي يتم قطعه أو التضييق عليه في نقطة ما من جهاز النطق، ولعل بعض المحدثين لم يفهم مقصد ابن جني من مصطلح الحرف، فرأى أن الصوت هو المنطوق والحرف هو المكتوب، وهذا ما لم نوافق عليه، وأثبتنا بطلانه.

وفيما يأتي النتائج المستخلصة من البحث:

١. قصدَ القدماءُ بالحرف (الصّوت اللغوي): وهذا ما أثبتناه ضمن حديثنا عن ماهية الحرف عند القدماء.

٢. الحرف عند القدماء لا يختلف عن الصّوت اللغوي، وقد وضحنا ذلك في أثناء حديثنا عن مخارج الأصوات وترتيبها وصفاتها عند القدماء.

٣. ذكر الخليل ثمانية مخارج للحروف الصحاح، ومخرجاً واحداً لحرف الجوف التي ليس لها حيّز.

٣. مخارج الحروف عند سيبويه ستة عشر مخرجاً، وسيبويه كالخليل يقصد بمخارج الحروف أماكن نطق الأصوات.

٤. خالف ابن جني سيبويه في ترتيب الحروف في موضعين هما: تقديم القاف على الكاف، وتأخير الضاد عن الأحرف الشجرية (ج، ش، ي).

٥. أخّر ابن سينا الألف ولم يجعلها بجوار الهمزة، خلافاً لسيبويه وغيره من القدماء، كما أخر النون إلى آخر الحروف.

٦. إن القدماء وإن اختلفوا في ترتيب الحروف وفي مخارجها؛ فقد توحّدت نظرتهم حول مصطلح الحرف بوصفه صوتاً لغوياً لا بوصفه مادة مرئيّة مكتوبة.

٧. رأى بعض المحدثين أنّ الحرف رمز كتابي للصوت، وهذا ما لم نوافق عليه، وأثبتنا بطلانه.

٨. ميز ابن جني بين نوعين من الأصوات هما: الصوت العام غير اللغوي والصوت اللغوي.

٩. الحرف عند ابن جني هو الصوت اللغوي، ويتكون نتيجة القطع في الصوت المستمرّ.

١٠. تكوّن الحرف عند ابن جني يحتاج لمرحلتين: الأولى مرحلة الصوت المستمر، والثانية مرحلة القطع في الصوت المستمر وتشكل الحرف.

المراجع والمصادر:

١. *الأصوات اللّغوية*، إبراهيم أنيس، دار الطباعة الحديثة، الناشر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥، ١٩٧٩م.

٢. *أسباب حدوث الحروف*، ابن سينا، تح: محمد حسان الطيان، ويحي مير علم، تقديم ومراجعة: د. شاكر الفحام، أ. أحمد راتب النفاخ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، د.ت.

٣. *التحليل اللغوي*، صلاح عبد الحق، دار التنوير للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٣م.

٤. *التعريف بعلم اللغة*، دافيد كريستل، ترجمة: حلمي خليل، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨١. ١٩٨٢.

٥. *التطور اللّغوي مظاهره وعلله*، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٤هـ -١٩٨٣م.

٦. *الخصائص*، ابن جني، تح: محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دون تاريخ.

٧. دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، مطابع الروضة النموذجية، حمص، ١٩٨٨م.

٨. *دراسة الصوت اللغوي*، أحمد مختار عمر، توزيع عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٦م.

٩. *دراسات في علم اللغة*، كمال بشر، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٧١م.

١٠. *دراسات في فقه اللغة*، مسعود بوبو، كلية الآداب، جامعة دمشق، ١٤٠٣هـ -١٤٠٤هـ، ١٩٨٣م - ١٩٨٤م.

١١. *سر صناعة الإعراب*، ابن جني، دراسة وتحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩٣م.

١٢. *علم الأصوات اللغوية* . الفونيتيكا، الدكتور عصام نور الدين، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

١٤. *علم اللغة في القرن العشرين*، جورج مونان، ترجمة نجيب غزاوي، وزارة التعليم العالي، الجمهورية العربية السورية، ١٩٧٢.

١٤. *العين*، الخليل، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٥. *فقه اللغة*، علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، ١٩٦٢م.

١٦. *فقه اللغة*، محمد المبارك، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٠.

١٧. *علم اللغة*، محمود السعران، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢م.

١٨. *فقه اللغة في الكتب العربية*، عبده الراجحي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.

١٩. *الكتاب، سيبويه، تح: وشرح عبد السلام محمد هارون*، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

٢٠. *كلام العرب من قضايا اللغة العربية*، حسن ظاظا، دار المعارف، مصر، ١٩٧١م.

٢١. *لسان العرب*، ابن منظور (ت:٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ١٩٥٦، ٣٥/١

٢٢. *اللغة بين المعيارية والوصفية*، تمام حسان، القاهرة، ١٩٥٨م.

٢٣. *اللغة العربية معناها ومبناها*، تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٣.

٢٤. *المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي*، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م.

٢٥. *النشر في القراءات العشر، ابن الجزري*، تح: محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت.